اللغة العربية بين المنطوقة والمكتوبة

د / يحيى بن عبدالله بن حسن الشريف

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها – كلية العلوم الإنسانية

جامعة الملك خالد

ملخّص البحث

يعالج البحث مسألة تشترك فيها أغلب اللغات ، وهي وجود أكثر من مستوى لغوي ، وهي المستويات التي يميزها مستخدم اللغة ويعمل بمقتضاها ؛ فهو ما بين مستوى لهجي له سماته ومجاله الضيق ، ومستوى آخر رفيع له خصائصه وميدانه الرحب ، هذا المظهر اللغوي وُجد في العربية منذ وقت مبكر أوصله بعضهم إلى العصر الجاهلي ، وإن كانت الفروق بين المستويين أقلّ ، وأدرك علماء العربية الذين جمعوا اللغة ووضعوا قواعدها أنهم بإزاء أكثر من لهجة تقترب أو تبتعد عن النموذج الفصيح ، فكانت الفصحى التي أُقيم عليها وصف العربية أوسع وأشمل من كل لهجة ، وكانت هي المعتمدة في الكتابة والتأليف والخطاب الرفيع بجميع أنواعه ، وظلت اللهجات الخاصة تستخدم حتى من قِبَل علماء اللغة على مستوى الخطاب الشفوي اليومي المتداول الذي يخلو من ملاحظة عناصر الجملة ، وعلاقتها ببعض ، ومراعاة تطبيق القواعد وما يتطلبه من دقة وانتباه .

وقد تحدث البحث عن الفرق بين اللغة المكتوبة والمنطوقة ، وعن اللغة المنطوقة من وجهة نظر علم اللغة الحديث ، وعن عناية الدراسات التقليدية باللغة المكتوبة ، وعن تأثير الكتابة على اللغة العربية ، وعن الازدواجية اللغوية (حديث النشأة) ، والازدواج اللغوي في العربية كما يراه المحدَثون ، وجهود المحدَثين لحل قضية الازدواج اللغوي في العربية ، وتناول البحث جملة من هذه الأقوال بالعرض والنقد ، ووصل إلى خلاصة أرجو أن تكون إسهاما ذا قيمة في الدراسات اللغوية ، والله الموفق .

Research Abstract

Handles Find a matter involving most languages, is the presence of more than a linguistic level, a level that distinguishes language user and works whereby; it is between the level of meditation has features and scope narrow, and the level of another high has its characteristics and its field welcoming, this linguistic appearance found in Arabia since the time early each took him to the pre-Islamic era, although the differences between the two levels below did not report that day to be a duplicate, and realized the Arab scholars who collected the language and put the bases they are confronted with more than one tone approaching or moving away from Eloquent model, was the standard, which was held by the broader Arab description of each tone, and she was approved in writing and authoring high discourse of all kinds, and remained own dialects used even by linguists at the level of daily oral discourse rolling, which is devoid of Note elements sentence, and its relationship with some, and taking into account the application of the rules and what it requires of accuracy and attention

Find the impact of writing on the Arabic language has spoken, and the difference between the language written and spoken, and spoken language from the perspective of modern linguistics, and modern science and traditional studies of language, and linguistic duality (nascent), bilingual in Arabic as he sees narrators, and efforts modernists resolve the issue of double taxation in the Arabic language, eat the search phrase from these statements and cash offer, and arrived to the conclusion that I would be a valuable contribution in linguistic studies, and God bless

مقدّمة :

في الوقت الذي يتفق فيه علماء العربية على أن اللغة العربية هي لغة البدو مرتبطة بالسليقة ، والبدوي هو الحَكَم في العربية الفصيحة حيث لا يطاوعه لسانه على الخطأ ، فالفصاحة فيه طبيعة ونحيزة ، وهذا ما أكّده ابن جني عندما ساق خبر السجستاني الذي قرأ عليه أعرابي في الحرم قوله تعالى[١] : (طِيبى لهم وحُسنُ مآب) فقال السجستاني : (طُوبى) فقال الأعرابي : طِيبَى ، وكررها فلما طال عليه قال السجستاني : طوطو ، فقال الأعرابي : طي طي ، فقد نبا طبعه عن ثِقل الواو إلى الياء ولم يؤثّر فيه التلقين ولا التمرين ، فكيف لو ترك على سليقته [٢].

ونجد بعض المستشرقين – وتابعهم بعض الباحثين العرب – يشكّكون في أن تكون العربية الكلاسيكية ، على الصورة التي نعرفها ، كانت لغة الكلام (التخاطب) أي أنه كانت هناك لغة مشتركة فوق مستوى العامة خليط من لهجات معينة من الجزيرة العربية ، أو أنها تمثِّل لهجة واحدة لكنه لم يعيِّنها ، ويدل على ذلك أن بعض الخصائص اللهجية لبعض القبائل لم تظهر في شعر شعرائها ، وأيضا الروايات الكثيرة التي تشير إلى وقوع اللحن من العرب ، واللحن لا يقع من المتحدث بالسليقة [٣].

والملاحظ من خلال ما نقل إلينا أننا – في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأوائل عهد الخلفاء الراشدين – نكاد نعدم الفروق الواضحة بين المنطوق من الكلام وبين اللغة المكتوبة ؛ اللغة التي اعتمدها اللغويون مقياسا للفصاحة ، واستنبطت منها القواعد ، وهي العربية الشمالية عربية مضر التي بسطت نفوذها .

واستمر الأمر كذلك حتى ظهرت مظاهر لحنية في منتصف القرن الأول الهجري تُمثِّل مستوى آخر من اللغة ، فأثَّر أحدهما على

١- من الآية ٢٩ من سورة الرعد .
٢- الخصائص ١/٧٥ ، وينظر ٢٥٠ ، ٣٤٨ منه .
٣- ينظر : فصول في فقه العربية ٧٦-٧٧ ، ٨٠-٩١، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا للحمزاوي ١٨١ ، أبعاد العربية ١٧٢-١٧٣، مقالات في اللغة والأدب لتمام حسان ١/ ٤٤٤.

الآخر فيما يسمَّى تداخل الأنظمة اللغوية ، وبرزت الحاجة إلى وضع القوانين والأصول التي تضبط كلام العرب .

و حرص خلفاء بني أمية على إرسال أولادهم للبوادي ينهلون اللغة الصافية من منابعها حفاظا على السليقة ، وظل تجنُّب اللحن ومراعاة الفصاحة أمرا مهمًّا يُبْنَى عليه قدر الرجال ومبلغهم من رجاحة العقل ، خاصة من كان من الطبقة الأرستوقراطية أو من يتبوَّأ مترلة رفيعة من خلافة أو ولاية أو إمارة وغيرها ، ونتبينه مما يروى أن عبدالله بن يزيد بن معاوية اشتكى إلى أخيه خالد من الوليد بن عبدالملك ، فأوصل خالد الشكاية إلى عبدالملك والوليد عنده ، فقال عبدالملك : أفي عبدالله تكلمني ؟! والله لقد دخل عليَّ فما أقام لسانه لحنا ، فقال له خالد : أ فعلى الوليد تعوِّل ؟ فقال عبدالملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه خالد ...[1]

ولْنَنْظر إلى ما فعله الحجاج مع يحيى بن يعمر وكان قد وصله كتاب من يزيد بن المهلب فأعجب بفصاحة المكتوب فقيل : إن ابن يعمر هناك ، فطلبه للحضور وسأله أين وُلدت ؟ قال : بالأهواز . قال : فهذه الفصاحة من أين ؟ قال : حفظت من كلام أبي وكان فصيحا ، قال : أخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثيرا ، ففلان ؟ قال : نعم ، قال فأخبرني هل ألحن ؟ قال : نعم تلحن لحنا خفيّا تزيد حرفا وتنقص حرفا ، وتجعل أنّ في موضع إنَّ ، وإنَّ في موضع أنَّ ، قال : إذا لا تسمعني ألحن بعدها ، وقد أجّلتك ثلاثا فإن وجدتك بأرض العراق قتلتك ، فرجع خراسان[2].

فقد فزع الحجاج من اللحن وأخذ على نفسه ألا يلحن ، وطرد ابن يعمر ، وهل كان ذلك إلا لعلمه أن الوقوع في معرّة الخطأ ، واللحنَ في الكلام ، والخروجَ عن جادة الصواب اللغوي مثلبٌ لا يُغتفر ، وزراية على

١- الكامل في اللغة والأدب ٤٣٣/١ .

٢- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٥/٤.

صاحبه ، كل ذلك مع أن ما أخذ عليه يسير إذا ما قيس بغيره مما يُوقَع فيه.

وكان الأعراب أنفسهم يمثلون دور الرقيب أحيانا كما يفعل أهل اللغة ، يُذكَر أن أبا جعفر المنصور تكلم في مجلس فيه أعرابي فلحن ، فصرَّ الأعرابي أذنيه ، فلحن المنصور مرة ثانية أعظم من الأولى ، فقال الأعرابي : أفٍّ لهذا ما هذا ؟! ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد لقد وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر [١].

ومع تعاقب السنين والابتعاد عن مراضع الفصاحة زمانا ومكانا ، واختلاط العرب بغيرهم من الأجناس ، بدأ الناس يتفلتون شيئا فشيئا من وضع كان الالتزام بالفصحى أمرًا صارمًا ، وأصبح في حكم النادر من يستطيع الالتزام بالفصحى نطقًا ، ويصوِّر أبو حيان التوحيدي هذا الأمر فيقول [٢]: ((إن من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ ، ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة قليل أو عزيز ، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ويقف على أحكامه ، ويجري على منهاجه ، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها ، ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية وعلى هذا النِّجَار فلعمري أنه غني عن تطويل النحويين كما يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض ... ولكن أين ذاك الفرد والشاذ والنادر)) . ويرى يوهان فك أن انحلال الدولة العباسية نهائيا – إلى أكثر من عشر دويلات مستقلة سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦م هو بداية عهد جديد للعربية المولّدة كما يصوره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم [٣].

وأصبحت الفصحى مقصورة على قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف وإنشاد الشعر، ويغتفر اللحن فيما يدور على ألسنة الناس ويتداولونه في محاوراتهم ومخاطباتهم ،

١- معجم الأدباء ٢٦/١.
٢- الإمتاع والمؤانسة ١٠٦/١-١٠٧.
٣- ينظر : العربية ١٧٤.

وإذا كان الجاحظ ينقل عن بعض العلماء كأبي زيد الأنصاري أنه كان لا يلحن البتة كأن لسانه لسان أعرابي فصيح[1] ، فإن بعض علماء العربية يتجاوزون في ذلك ، وأصبح مقدار وفائهم بلوازم العربية الفصحى موضع تتبُّع ورصد ، حُكِيَ عن الفراء – مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو – أنه دخل على الرشيد يوما فتكلم بكلامٍ لَحَنَ فيه فقال جعفر بن خالد : أتلحن يا يحيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب ، وطباعَ أهل الحضر اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه [2].

ومثله ما نقله ياقوت الحموي أن المنذري سأل ثعلبًا عن كتاب العين ، فقال : ذاك كتاب مُلِئ غُدَد ، قال : وهذا لفظ أبي العباس ، وحقه عند النحويين (ملآن غددا) ولكن كان أبو العباس يخاطب العامة على قدر فهمهم ، قلت : ليس هذا بعذر لأبي العباس فإنه لو قال : ملآن غددا لم يَخْفَ معنى الكلام على صغار العامة ، فكيف وفي مجلسه الأئمة من أهل العلم ! ثم سائله الذي أجابه ليس بتلك الصورة ، وإنما عذره أنه كان لا يتكلف الإعراب في المفاوضة ، وهي سنة جلة العلماء ، وأراد أن في جراب العين حروفا كثيرة قد أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف والتغيير فهي تضرُّ صاحبها كما تضرُّ الغدد آكلها [3]. وثعلب ممن اشتهر بعدم إقامة الإعراب في حديثه كما ذكر الحافظ الذهبي [4]، وساق الصفدي حديثًا لابن فارس يذكر أن ثعلبًا كان يدخل المجلس فيقومون له فيقول : أَقْعُدوا أَقْعُدوا بفتح الألف [5].

وابن بري الذي كان علّامة عصره وحافظ وقته ، وتشهد مؤلفاته على سعة علمه وعظيم اطلاعه ، وكان رئيس ديوان الإنشاء

١- ينظر : البيان والتبيين ٢٢١/٢.
٢- صبح الأعشى٢١١/١.
٣- ينظر : معجم الأدباء ٢٢٥٤/٥.
٤- سير أعلام النبلاء٦/١٤، وينظر : معجم الأدباء٥٤٣/٢.
٥- الوافي بالوفيات ١٥٨/٨.

لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما فيه ، ويذكر عنه أنه لا يتكلف في كلامه ولا يتقيد بالإعراب بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق ، حتى قال يومًا لبعض تلامذته ممن يشتغل عليه بالنحو : (اشتر لي قليل هندبا بعروقو) فقال له التلميذ : هندبا بعروقِهِ ! فعزَّ عليه كلامه وقال له : (لا تأخذه إلا بعروقو وإن لم يكن بعروقو فما أريده) ، وكانت له ألفاظ من هذا الجنس لا يكترث بما يقوله ولا يتوقف على إعرابها [١].

الفرق بين اللغة المكتوبة والمنطوقة :

انطلق بعض الباحثين في التفريق بينهما من قضية القِدَم ، فالكتابة تقليد حديث ، والكلام والسماع لقدمهما يبدوان أكثر أهمية ؛ لأنهما أدخل في الحياة من الكتابة ، وأوغل في سلوك الفرد والمجتمع ،ولذلك فقد زعم بعض العلماء أن التفكير لا يتم بدون الكلمات .

وأضاف فرقًا آخر لصالح الكلام المنطوق الذي يعتمد على أساسين أحدهما حركي (المخارج) والثاني سمعي (الصفات) ، وهو التنوع الذي تتيح مقابلاته وقِيَمه الخلافية – بين المخرج والمخرج ، وبين الشِّدة والرخاوة ، وبين الجهر والهمس ، وبين التفخيم والترقيق – إنشاء نظام صوتي لغوي ، أما الحركات الكتابية فلا تتعدد فيها الأسس على هذا النحو [٢].

وقَصَر عالم اللسانيات موسكوفيتشي الفرق بينهما في الجانب الأدائي ، وذكر من الفروق ما يلي :

١- الطاقات العضلية المبذولة في اللغة المكتوبة أهمّ منها في المنطوقة .

٢- تقتضي التبادلات الشفهية في اللغة المنطوقة وجود شخص آخر ؛ في حين تتوجه التبادلات الكتابية في اللغة المكتوبة إلى شخص غائب غالبا ، ولذا لا تستخدم فيها إشارات حركية وإيماءات للوجه كاللغة

١- وفيات الأعيان ١٠٩/٣.

٢- ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ٤٦.

المنطوقة . وأضاف ألان جاردنر أن الترقيم في الكتابة يقوم مقام التنغيم ، وحركات اليد والوجه في الكلام ، وإن كان يقصر عنها غالبا ، ولكن الكتابة لم تستطع أن تستعيض عن النبر بوسيلة أخرى [١].

٣- الإرسال الشفهي في اللغة المنطوقة إرسال متواتر مستمر ، أما الإرسال الكتابي فمتقطع يقتضي تعمُّدا وجهدًا أكبر للتكيُّف مع موقف مقيَّد نسبيًّا .

٤- هناك معنى اجتماعي خاص يوجّه سلوك القائمين بالإرسال أو التلقي في اللغتين يمكن فهمه من خلال رصد المكونات الصوتية التي ترافقها موجات نفسية واجتماعية وأسلوبية وبلاغية تمثِّل عقبة في طريق متعلمي اللغات الأخرى ويمكن تذليلها بإدخال هذه الجوانب الأسلوبية والبلاغية والاجتماعية للغة المنطوقة في مكونات اللغة المكتوبة ؛ لتتحرر من قيود الجمود والشكلية [٢].

٥- وأضاف فندريس أمرًا يتعلق بالنظام النحوي ، فجعل الفرق الأساسي بينهما ينحصر في تكوين الجملة ، فالجملة في اللغة المكتوبة ذات ترتيب منطقي تمليه القواعد ويتسع له الوقت ، وتتلاشى فكرة الجملة بالمعنى النحوي في لغة الكلام فتبدو العناصر اللغوية في اللغة المتكلَّمة منفصلة مقطعة الأوصال غير مرتبة يحكمها منطق انفعالي[٣].

٦- وأضاف د/ سليمان العايد أن اللغة المنطوقة متحوّلة سريعة التغيّر ، بخلاف المكتوبة التي تتميز بالثبات ، وانبنى عليه فرق آخر وهو أن اللغة المكتوبة قابلة للتنقية والتصحيح بخلاف المنطوقة التي لا يمكن فيها ذلك لصعوبة الإحاطة بها [٤].

١- ينظر : مناهج البحث في اللغة ٤٠ ، اللغة العربية معناها ومبناها ٤٧.

٢- اللسانيات من خلال النصوص ٦٨-٦٩ ، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث٤٨٢-٤٨٣ ، ٤٨٧، النص والخطاب والإجراء لدي بوجراند ٤٢٣.

٣- اللغة ١٩١- ١٩٣ وينظر : النص والخطاب والإجراء لدي بوجراند ٤٢٢. .

٤ علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة في اللغة العربية (ضمن محاضرات نادي مكة الأدبي الجزء الرابع ١٤١٩-١٩٩٩ ص ٩٠-٩١.

وفي اللغة العربية يظهر الفرق الجوهري الحاسم بينهما في غياب ظاهرة الإعراب باعتبارها عنصرا تتميز به وظيفة الكلمة وموقعها ، لا باعتبارها مجرَّد أداء صوتي إيقاعي ، ويكون المقام والسياق محددات الموقع والوظيفة ، ولم يكن غياب الإعراب غيابًا مفاجئًا ولكنه تحوُّل استغرق زمنًا طويلاً ، وكانت من مظاهره التخفُّف بعدم تكلُّفه ، واختزال حركاته مع تراخي الزمن بالاتجاه إلى أحادية الحركة في المبنيات ، والنزوع إلى التسكين في مواضع يقضي لها نظام الإعراب بالحركة [١].

ويرى المستشرق الألماني يوهان فُك أنّ الأقرب للصواب في سبب إسقاط الإعراب أن لهجات الشعوب التي اتخذت العربية لسانًا لها كانت من النوع التحليلي الذي تنازل عن ظواهر تصرفه وضوابط استعماله كثيرًا أو قليلاً [٢].

وهنا ملحظ دقيق ليوهان فك يرينا أن إسقاط الإعراب في العربية لا يعود لأسباب تطوُّرية ، كما ذهب إليه بعضهم حين قاسها على غيرها من الساميّات أو اللغات الأوربية التي تفرعت عن اللاتينية وهي معربة أيضا ؛ لأنّه ثبت تاريخيًّا أنّ الإعراب بقي قرونًا طويلة في لغة البدو بعد الفتوحات [٣].

ويقف على الطرف الآخر من القضية أنيس فريحة الذي أبدى قناعته في جميع كتبه بأنّ اللغة المحكية هي اللغة الطبيعية للفهم والإفهام وأنّ العربية الفصحى الكلاسيكية لكونها معربة تفقد المرونة وتمثل عائقًا للفكر ، وردّ عليه د/ داود عبده بأنّ الفصحى أكثر مرونة في التركيب ، وذكر أنّه لو طالب بحذف حركات الإعراب لكان له بعض عذر ؛ لأن موقع الكلمة من الجملة (الموقعية) هو الذي يؤدي المعنى لا الحركة الإعرابية التي تُهْمَل في مواضع كثيرة دون أن يحدث لبس في المعنى ، ولكنّ الحجّة اللغويّة الوحيدة للتمسّك

١- ينظر : قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث ٧٢-٧٥ ، اللغة العربية معناها ومبناها ٢٣٣.

٢- اللغة والكلام (أبحاث في التداخل والتقريب) ١٨٤، وينظر : العربية ١٠٥

٣- ينظر : اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل ١٥٠.

بالحركات الإعرابية هي صحّة اللفظ كـ (جاء الرجلُ) ، والكتابة كـ (جاء المعلمون) وهما مما يجب التمسّك به [1].

اللغة المنطوقة من وجهة نظر علم اللغة الحديث :

ظلّت البحوث اللغويّة عند الأوربيين حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي مقصورة على اللغتين الإغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الفصحى ، ولم يكن للهجات العامية حظّ من الدراسة ، وبقيت مهملة محاربة لأسباب متعدّدة ، منها أنّهم يرونها مصدر خطر على الأدب [2].

وسادت الدراسات الفيلولوجية في القرن التاسع عشر الميلادي ، وكانت تاريخية ومقارنة تهدف إلى معرفة العلاقات الوراثية بين اللغات ، وما يترتب على ذلك من الكشف عن قوانين التطور فيها ، وفي بداية القرن العشرين نَحَتْ الدراسات اللغويّة منحًى جديدًا ، وأصبح (علم اللغة) يتخذ اسم العلم science لدراسة اللغة وفق منهج علمي موضوعي باعتبار أنّ اللغة مادة محسوسة تدرس كما هي وليس كما ينبغي أن تكون ، فيصف حالة اللغة في وضعها الراهن ، ومن هنا يجب أن يكون الوصف موجَّها نحو مظهرها المنطوق لاالمكتوب [3].

ومن وجهة نظر علم اللغة الحديث (اللسانيات) فإنه ليست هناك لغة أفضل من لغة ، ولا لغة رديئة وأخرى جيدة ، فاللغات البشريّة كافّة – بما فيها اللهجات – جديرة بالدرس والبحث والخضوع للضبط والتجريب ، وهي بذلك تخالف النحو التقليديّ الذي ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالأدب (اللغة الأدبية الكلاسيكية) فكان جُلّ اهتمامه باللغة المكتوبة وأهمل الفوارق بين الكتابة والكلام ، وغاب عن أذهان التقليديين أن ما يسمى لغة أدبية هو من وجهة النظر

١- أنيس فريحة وبعض آرائه اللغوية (ضمن كتاب : تمام حسان رائدا لغويا) ٩٥، ٩٨-١٠٠
٢- علم اللغة ٤٩ ، ٥٦.
٣- ينظر : مبادئ في قضايا اللسانيات لفوك وقوفيك ١٧-٢٠، اللغة بين المعيارية والوصفية ١٣٧، فقه اللغة في الكتب العربية ١٩-٢٠ ، ١٠٣ ، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ٣١٨-٣٢٠، فقه اللغة في الكتب العربية للراجحي ١٩-٢٠ ، ١٠٣ ، النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية لعبده الراجحي (ضمن كتاب : تمام حسان رائدا لغويا) ٢٤٤.

التاريخية ليس سوى لهجة محلية أو اجتماعية اكتسبت مكانة مرموقة لأسباب سياسية غالبًا[١]. وفي هذا السياق فرق دي سوسير بين (علم اللغة السكوني – التزامني) الذي يدرس كلّ ما يتعلّق بالمظهر الاستقراري للغة ، وبين (علم اللغة الحركي – التعاقبي) الذي يدرس كلّ ما له علاقة بالتطوّر المرحلي [٢].

وكان رائد علم اللغة الوصفي السويسري دي سوسير قد نصَّ على ذلك فقال [٣]: ((الهدف لعلم اللغة ليس الصورة المكتوبة والصورة المنطوقة للكلمات ؛ بل يقتصر هذا الهدف على الأشكال المنطوقة ، بيد أن الشكل المنطوق يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالصورة المكتوبة ، حتى إنّ الصورة الأخيرة تطغى على الصورة الأولى (الكلمة المنطوقة) فيهتمّ الناس بالصورة المكتوبة للإشارة الصوتية أكثر من اهتمامهم بالإشارة نفسها ، وشبيه هذا الخطأ باعتقادنا أننا نستطيع أن نعرف عن الشخص من صورته أكثر من النظر إليه مباشرة)) .

اللغة المكتوبة بين الدراسات التقليدية وعلم اللغة الحديث :

أعني بالتقليدية الدراسات التي سبقت مرحلة اللسانيات ، فقد عدَّ النحويون التقليديون الكلام نسخة مشوَّهة عن الكتابة ، في حين يأخذ علماء اللغة المحدثون – كما رأينا – بالمسلَّمة التي تبوِّئ الكلام المكانة الأولى وتُحِلُّ الكتابة ثانيًا ؛ لأنّها مشتقّة منه ، فاللغات المعروفة لم تكن بادئ ذي بدء سوى كلام منطوق ، والأطفال يتقنون الكلام قبل تعلّم الكتابة [٤].

وكان النحو التقليدي عرضة لنقد المدارس اللغوية الحديثة ، خاصة المدرسة الوصفية ، وأخذ اللسانيون المحدثون على النحو التقليدي أنّ منظومة قواعده غير ذات نفع للمتعلّم لأسباب منها أنّ الأسباب التي بنيت

١- أسس علم اللغة لماريوباي ١١٩، ١٣٧-١٣٨، اللسانيات لجان بيرو ٢٣، نظريات في اللغة لفريحة ٤٨- ٥٣ ، ٥٠ ، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ١١٠، ١٢٨ ، ١٣٠ .

٢- ينظر : توطئة لدراسة علم اللغة للتهامي الهاشمي ٨٤-٩٥.

٣- علم اللغة العام لسوسير ٤٢

٤- مناهج البحث في اللغة ٤٠، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ١١٠، ١٢٨ ، ١٣٠ .

عليها غير مطّردة ، وأنّ الاهتمام ينصبّ على الممنوع في القول والكتابة ، وأنّ هناك انفصامًا بين الصورة المقنَّنة للغة واستعمال الناس لها في حياتهم ، فكان ذلك سببًا لرفض كلّ مشروع النحو التقليدي[١]. وأعلن روبرتس (١٩٥٨م) عن تشييع جثمان النحاة [٢].

وكذا أصحاب المدرسة التحويلية يقول تشومسكي [٣]: ((النحو التقليدي يهمل أجزاء كاملة من اللغة كصياغة الكلمات مثلا ، وهو معياري يتخذ لنفسه دور فرض القواعد وليس تسجيل الحقائق ، وهو يفتقر إلى نظرة شاملة ، وكثيرًا ما يعجز هذا النحو عن الفصل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المنطوقة وغير ذلك)) .

وانطلق عدد من الباحثين العرب إلى تبنِّي المنهج الوصفي (البنيوية) وطفقوا يبشِّرون بالنظرية اللغوية الغربية ، واعتمدوا طرائقها في التحليل ، واستخدموا كثيرًا من مصطلحاتها ، وقد أعدّ معظمهم دراسته عن لهجة عربيةٍ ما ، ثمّ عاد يطبّق المنهج الجديد على درس العربية ووجهوا نقدًا عنيفًا للدرس العربي القديم تناول قضايا عامّة منها : أنّه صادر عن فكر فلسفيّ وأنّه نحو عقليّ يتوجَّه إلى تحليل الأشكال اللغوية لا المعنى ، وأنّه اعتمد مستوى أدبيًّا عاليًا فكان معياريًّا لا وصفيًّا ، وكلّ ذلك لا يتعدَّى أن يكون ترجمة أمينة للنقد الذي وجّهه البنيويّون الغربيّون للنحو الأوربي القديم [٤].

فيرى د/ عبدالسلام المسدِّي أنّ قيام النحو العربي ليس إلا إقرارًا بسلطة الزمن على اللغة ، وكانت نشأته انطلاقًا من وعي بحتميّة التغيّر الطارئ على الظاهرة اللغوية ؛ غير أنّ حركة التغيّر كانت من التباطؤ بحيث خفيت عن الحس الفردي والجماعي[٥].

وهذا ما عناه فيشر الذي رأى أنّ مرحلة العربية الفصحى انتهت في القرن العاشر

١- النص والخطاب والإجراء ٥٦٠-٥٦١.
٢- النص والخطاب والإجراء لدي بوجراند ٥٦٠-٥٦١.
٣- علم اللغة العام لسوسير ١٠١ .

٤- ينظر : النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية لعبده الراجحي(ضمن كتاب : تمام حسان رائدا لغويا) ٢٤٨- ٢٥١، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحديثة في العالم العربي (ضمن ندوة : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية) ص٣٩٢.
٥- اللسانيات وأسسها المعرفية ٣٩.

الميلادي وانفصلت عن مرحلة ما بعد الفصحى – كما يسميها – التي استُخدمت فيها طرق للتعبير وتراكيب رفضها النحو المعياري ، وفي نطاق الثروة اللغوية – بوجه خاصّ – لم يكن ممكنًا الحيلولة دون أبنية جديدة ، وتغييرات دلاليّة ، وقبول كلمات دخيلة ؛ لأنّ الثروة اللغوية لم تلتزم كالصرف والنحو بالمعيارية والثبات [١].

ورأى د/ المسدي أيضًا أنّ اللسانيّات خرجت باللغة من حصار اعتبارها ظاهرة انعكاسية كالكتلة من القيم تصدر عن ذاتها لتعيَ نفسها بنفسها ... وحيث فُكَّ هذا الحصار المتوارث فإنّ اللغة أصبحت تتنَزَّل قبل كلّ شيء في إطارها الأدائي الذي هو الحوض الحيويُّ لها [٢].

ودعا د/عبدالقادر الفاسي الفهري إلى اعتماد أحد النماذج الوصفية الحديثة التي أثبتت كفايتها ، وأنه لا ضرورة منهجية ومنطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادّة معيّنة ، ولا حاجة إلى مزج النماذج الغربية بنموذج ينطلق من العربية [٣] ، ونتيجة لهذا فإنّه يهدف إلى وصف اللغة العربية الحالية وصفًا كافيًا ؛ يمكّن من بناء نظرية للغة العربية ، أو نحوٍ يمثّل الملكة الباطنية لمتكلِّم هذه اللغة [٤].

وفي إطار الفكرة نفسها يذكر د/عبالقادر المهيري أنّ البنيوية تدرس اللغة كنظام تتحرك به الألسنة بطريقة معيّنة للتواصل ، وعلى هذا الأساس يجب دراسة هذا النظام في ذاته ولذَاته [٥].

وفي الاتجاه ذاته يرى د/ الحناش أنّ العربيّ يمكن أن يضع قواعد للغته المعاصرة دون أن يعبأ بتاريخ هذه اللغة ؛ لأن تاريخها يخرج عن علم اللغة ، ولن يفيد في وضع قاعدة

١- الأساس في فقه اللغة ٣٠، ٤١.
٢- اللسانيات وأسسها المعرفية ٣٥-٣٦.
٣- العربية والدرس الحديث د/نعمة العزاوي بحث ضمن وقائع ندوة دائرة علوم اللغة العربية (لغة الضاد) ١١٧/٢.
٤- ينظر : اللسانيات واللغة العربية ٣٢-٣٣.
٥- ينظر : نظرات في التراث اللغوي العربي ٢٣١-٢٣٢.

جديدة ، لأنّ القديمة كانت لها علاقة بنظام يختلف عن نظام اللغة الجديدة [١].

ويذكر د/نايف خرما أنّ جميع كتب القواعد التقليدية في أوربا تتّخذ اللغة المكتوبة معيارًا للصحّة والسلامة ، وتبني قواعدها على أساسها ، وهذا ينطبق إلى حدّ كبير جدّا على قواعد اللغة العربية حتى عصرنا هذا ، مع أنّ لكلّ من اللغة المكتوبة ولغة الكلام استعماله وخصائصه التي تتشابه مع الآخر أو تختلف ، وبهذا المنظار يجب أن ننظر إلى كلّ من هذين الشكلين ، ولا نفضل أحدهما على الآخر من الناحية اللغوية [٢].

ورأى د /مازن الوعر أنّ ما يجعل اللسانيّات متميّزة على النحو التقليدي هو الصفة العلميّة التي تحملها ، وهي نتيجة طبيعية لاستقلالية هذا العلم عن العلوم الأخرى ، ولم تكن كالنحو التقليدي الذي ارتبط بالفلسفة والنقد منذ ظهوره ، وارتبط باللغة المكتوبة وأهمل الفروق بين الكتابة والكلام ، واعتنى باللغة الأدبية الكلاسيكية واحتقر التعبيرات العامية [٣].

وفي سياق نقد الدراسات العربية التقليدية فإنّ بعض الباحثين المعاصرين يرى أنّ اللغويين القدامى وقعوا في كثير من الأوهام بسبب تأثرهم بالصورة المكتوبة للعربية ، وغفلوا عن النطق ، ولم تحظ أصوات العِلَّة المجهورة vowels في العربية بمثل ما حظيت به الأصوات الصامتة Consonants وكان يُنظر إليها على أنها تابعة للأصوات الصامتة ولا تستقلّ بنفسها ، وسبب هذا الخطأ أنّ الكتابة العربيّة لا ترمز إلى الحركات القصيرة (أصوات العلّة) برموز في بنية الكلمة ، وإنما تُوضَع رموزها فوق الحرف أو تحته فتُوُهِّمت تابعة وليست مستقلّة استقلالاً تامًّا لا يقِلُّ عن رمز الحرف للأصوات الصامتة ، ووقعوا في خطأ آخر حين عدّوا حروف المدّ ، وهي : الألف والواو والياء أصواتًا صامتة ، وهي

١- ينظر : البنيوية في اللسانيات ١٨٥.
٢- ينظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ٣٦، ٨٧، ٨٩.
٣- ينظر : أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ١١٠، ١٢٨-١٢٩.

علامات لأصوات : الفتحة الطويلة ، والضمة الطويلة ، والكسرة الطويلة [١].

تأثير الكتابة على اللغة العربية :

مما تُتَّهم به الكتابة عمومًا أنّ تمثيل أصوات اللغة بها كان مصدر غموض وتداخل بين الحقيقة الصوتيّة والعلامة الكتابيّة التي تمثِّل صورة مشوَّهة للغة [٢].

وإذا كانت الكتابة تُمَثِّل شكلاً من أشكال حفظ اللغة ، فقد أدّى تحوُّل العربية إلى لغة مكتوبة إلى آثار تعدَّت الحفظ إلى ما هو أكثر ، وأهم تلك الأمور :

١- لم تَعُدْ لغة شعرٍ بالدرجة الأولى ؛ فانتقلت من اللغة المغنَّاة إلى اللغة المدوَّنة ، وفُقِدَ جانب الرواية المعتمد على القدرة الصوتية ، فتغيّرت تبعًا لذلك قواعد الوقف ، وطرق الربط .

٢- اختلاف نسق القواعد بتطوّر نظام الصيغة ونشوء أبنية جديدة في اشتقاقات الفعل ، وتحوّل يخص طبيعة المعنى بتحويل الأفعال المتعدية إلى أفعال تتعدى بواسطة .

٣- تحرّر نظامها الصوتي من بعض الخصائص المكتسبة وتحوّله عنها ، وبرز ذلك في ثلاثة مظاهر هي : الإمالة ، التوافق الحركي في نطق الصوائت ، وتحقيق الهمزة بعد أن كانت غير محقّقة عند بعض القبائل .

٤- التقليل من التكرار المتَّبع في الأساليب الشفهية الذي يتطلب كلمات زائدة عن الحاجة ليس لنقل الدلالة ولكن لتحقيق الجرس وقوّة التأثير على السامع كالألفاظ المتجانسة ، والإتباع والمزاوجة [٣].

٥- مثّلت اللغة المكتوبة بالإضافة إلى النظام الصرفي العربي (المورفولوجي) حاجزًا حال دون تسرّب ألفاظ غير عربية إلى الفصحى ؛ بخلاف اللغة العامية المنطوقة التي

١- ينظر : الأصوات اللغوية ٣٧ الأصوات العربية ١٤٧، الكتابة العربية والسامية ٨٧، اللهجات وأسلوب دراستها ٢٧، فصول في فقه اللغة ٣٩٦، ٤٠٨، ٤١٠ ، تطبيقات في المناهج اللغوية ١٨٠.

٢- اللسانيات لجان بيرو ٥ ، ٢٣ ، وينظر : علم اللغة لوافي ٢٤٩-٢٥٠ ، اللغة العربية معناها ومبناها ٣٢٥.

٣- ينظر : أبعاد العربية ١٧٤

تشتمل على نسبة أعلى كثيرًا من الألفاظ الأجنبية [1].

الازدواجية اللغوية (نشأة المصطلح) :

على الرغم من وجود مستويين لغويين (فصيح وعامي) في أكثر من لغة إلا أنّ تخصيص هذا الاقتران بمصطلح لم يظهر إلا متأخّرًا ، ويُعدّ الأمريكي تشارلز فيرجسون أول من اشتُهر بمصطلح (الازدواجية – Diglossie) حين كتب مقالة بهذا العنوان نشرها في مجلة (Word) سنة ١٩٥٩م ، وأورد أربعة أمثلةٍ لها ومنها العربية الكلاسيكية والدارجة ، وذكر أنّ هذه التنوعات تستعمل في مقامات معيّنة ، فيستعمل في الخطابات السياسية والخطب الدينية والإعلام ما سماه (النمط العالي) ، ويستعمل في الحياة اليومية والأدب الشعبي ما سماه (التنوع الدوني) ، ويُفهم من هذا أنّ الازدواجية اللغوية تظهر كلّما ظهر توزيع وظيفي للاستعمالات بين لغتين أو شكلين من اللغة نفسها .

وفرق بين الفصحى والعامية من حيث : الوظيفة ، والمكانة ، والموروث الأدبي ، والاكتساب ، والمعيارية ، والثبات . وتحدث عن الملامح المميزة لكلّ منهما في : النحو ، والمعجم ، والنظام الصوتي [2].

وكان تشارلز فيرجسون يرمي إلى مقارنة مختلف الأوضاع اللغوية ، وتصنيفها ، ووضع مبادئ وصفية ونظرية ، وطلب بين عامي ١٩٦٢-١٩٦٤م من طلبته في جامعتَي واشنطن وجورج تاون وصف الأوضاع السوسيولسانية لمختلف البلدان ، وظهر تباين بين اللغات من حيث الأهمية ، وكذا قصور في المعلومات عن بعض اللغات ، وخلص إلى وضع بعض معايير التصنيف التي بموجبها تعدّ لغة ما لغة رفيعة أو وضيعة ، ومنها : عدد المتحدثين باللغة ، وكونها لغة التعليم [3].

ولصعوبة تحديد المستويات اللغوية المختلفة فإنّ فيرنر ديم W.Diemيوسّع الوصف

١- الأساس في فقه اللغة لفيشر ٤٢.

٢- الازدواج اللغوي ، ترجمة د/ عبدالرحمن القعود ١٩٥ ، ٢١٩.
٣- السياسات اللغوية٣٢-٣٦ ، وينظر : اللغة العربية في العصر الحديث ١٣٧.

الأساسي للازدواجية في العربية ويجعلها خمسة مستويات : لغة فصحى محضة ، وفصحى مع تداخل لهجي ، وخليط متماثل من الفصحى واللهجة ، ولهجة مع تداخل الفصحى ، واللهجة المحضة ، وكذا فعل بلانك Blanck والسعيد محمد بدوي ، في عدم قصر الازدواج اللغوي على ما قاله فرجسون في تصنيفه الحادّ ، وإن كانا يختلفان في التصنيف [١].

الازدواج اللغوي في العربية كما يراه المحدَثون :

انطلق أكثر دارسي اللغة العربية في الحديث عن الازدواج اللغوي من وجود مستويين للغة (فصيح وعامي) في حين رأى د/ نهاد الموسى أنّ العربية تنطوي – إضافة إلى ما سبق – على مستويين ثالث ورابع ، ونَجَم الثالث في أواسط القرن الماضي ويقع بين بين (بين الفصيح والعاميّ) وعُرف بالعربية الوسطى أو (عربية المتعلِّمين المحكية) واحتفى به ت . ف . ميتشل من جامعة ليدز وساعده على وصفه عدد من الباحثين ، ودعوا إلى تبنّيه دون إبطاء ، وهذا المستوى يشبه أن يكون سليقيًّا فصيحًا ولكن الإعراب فيه ما يزال غائبًا إلا ما ندر ، وتمثله تقارير بعض مراسلي الفضائيات التي تقدّم خلال نشرات الأخبار . أما المستوى الرابع فهو أشيع تجليات العربية تداولاً ، وهو يجعلها نموذجًا لحال لغوية فريدة ، وينطوي على تساهل في أمر الإعراب ، وسمّاه (العربية المعاصرة) وهو مستوى خاصّ تمثّله العربية المكتوبة غير المشكولة ، وجُلّ المتداوَل بالعربية هذه الأيّام يقع ضمن هذا النوع ، وهذا المستوى فصيح بالقوّة وليس بالضرورة فصيحًا بالفعل ، وذلك أنّه لا يشفُّ عن تحقّق فصاحته ولا عمّا يعتريه من اللحن إلا فيما يدلّ عليه الرسم كما في الأسماء الخمسة والمثنّى ... وهذا المستوى يُلقي على القارئ إحساسًا مقيمًا بالخوف من اللحن أو القصور في الأداء [٢] .

فإذا ما عدنا إلى التقسيم الأول إلى مستويين (فصيح وعامي) فإننا نجد أن

١- ينظر : دراسات في العربية ١٤٥-١٤٦، اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها لفرستيغ ٢١٨-٢١٩.

٢- ينظر : اللغة العربية في العصر الحديث ١٣٨ - ١٤١ .

اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث قد دعا فريقًا من المحدَثين – منهم إسكندر المعلوف ، وأنيس فريحة ، وعبدالعزيز فهمي ، وسلامة موسى – إلى رفع لواء العامية في مقابل الفصحى ، وزعموا أنّ هذا الاختلاف سبب تخلّفنا الثقافي ، وأنّه من الممكن اتخاذ أيّ لهجة عاميّة لغة للكتابة ، ودعوا إلى تقعيد هذه اللهجات [1].

وفي مقابل ذلك يرى آخرون ومنهم د/ كمال يوسف الحاج أنّ ازدواجية اللغة ظاهرة طبيعية ، ومعطى بدهيّ في حياة الشعوب الراقية ، وأنّه كلّما تحضّر الإنسان احتاج إلى كلمات فصيحة جديدة يعبر بها تقصر دونها العامية ؛ فيلجأ للفصحى طلبًا للمرونة في التعبير والنظام النحوي الذي لا يتبدّل ، وأكثر من هذا فإنّ من لا تحتمل لغاتهم ازدواجية صريحة شعوب همجيّة متوحّشة ؛ لأنّ الشعب الذي يضرب في الحضارة تكون له ما ورائيات وعلوم يتحتم على لغته المكتوبة أن تختلف عن لغته المحكية .

وناقش الدكتور / كمال هذه القضية معتمدًا على أساسين : فلسفي ولغوي ، وانطلق في الفلسفي من أنّ الازدواج في اللغة بين الفصحى والعامية امتداد للازدواج في الوجدان ، فوجود الإنسان يقوم على محركين أصليين متلازمين فيه هما : الحس والعقل ، والحس المشوَّش محدود الزمان والمكان لا يقوم في تجربته على ناموس منظَّم ، والعقل لا يكتفي بالوقوف على الموضوعات بل يجوزه ليقف على الروابط القائمة بين الموضوعات ، ينظِّم ويصنِّف ويربط ، فالحياة ذات عفويتين عفوية القلب الذي يرضى بالعامية ، وعفوية العقل الذي لا يرضى بها ، ومن هنا فلا داعي للقضاء على العامية في سبيل الفصحى أو العكس ؛ لأن ذلك في رأيه بمثابة خنق للحياة عينها [2].

١ ينظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٣٦٢/٢-٣٦٩.

٢- في فلسفة اللغة ٢١١، ٢١٣ ، ٢٢٠-٢٢٢.

ويتفق معه الطيب البكوش الذي رأى أن التعدُّد في مستويات اللغة العربية عامل إثـراء حافز على البحـث والنظـر[١] ، ويشـاركه الدكتور / عبدالرحمن الحاج صالح الذي يرى أن وجود مستويين من التعبير في العربية أمـر طبعي تشاركها فيه كلّ اللغات التي لها كتابة ، إلا أنّه يذكر أنّ الفجوة كبيرة في زماننا بـين المستويين في العربية بخلاف ما هو حاصـل في الفرنسية مثلاً ، ويرجع ذلك إلى انتشار الأمِّية الذي أدّى إلى تغلُّـب المستـوى المسترسـل (الشفاهي) [٢].

وحديثه عـن اتسـاع الفجـوة بـين مستويات اللغة كلامٌ لا يجب أن يؤخذ علـى إطلاقه إذا ما علمنـا أنّ عـالم اللسـانيات الفرنسي أندريه مارتينيه قال إنّ الفروق بـين مستويات اللهجة المصريّة والفصحى الحديثـة ولغة القرآن الكريم فروق أسلوبية في جوهرها وأنها جميعًا تشكّل لغة عربيّة واحدة ، ووجود أساليب مختلفة متواصلة في اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة يعطي انطباعًا باتّساع هـذه اللغـة ووحدتها . و استشهد بأمثلة متنوعة من اللغة الفرنسية تبرز الخلاف بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة من دون أن يثير هذا الاختلاف لدى الناطقين بالفرنسية إحساسًا بوجـود لغـتين فرنسيتين بدلاً من واحدة ، ومن دون أن ترقى الأولى إلى مرتبة الثانية [٣].

ويختلف معهما الدكتور / عبـدالقادر الفاسي الفهري فيما يخصّ غير العربية ، فيرى أنّ وجود لغات أخرى تعنى بالجانب الإبداعي والتواصل المكتوب ولـيس لغـة التواصـل اليومـي ، يفقد العربيـة بعـض وظائفهـا تدريجيًّا ، ولكنّه لا يمثّل إشـكالاً في مقابـل التشكيك في قدرة اللغة على القيام بوظائفها أو جانب من هذه الوظائف [٤].

آراء المحدَثين لحلّ قضيّة الازدواج في العربيّة :

ساد اتجاه إلى محاولـة التقريـب بـين الفصحى والعامية ، ومن أبرز الـداعين إليـه

١- ينظر : أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ٧٧ .
٢- السابق ٨٧ .
٣- مبادئ اللسانيات العامة ١٦٢، وينظر : اللغة لفندريس ٣٤٤ .
٤- ينظر : أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ٩٩.

د/رمضان عبدالتواب حيث أدرك صعوبة أن يستخدم الناس اللغة الأدبية في حديثهم اليومي ، مشيرًا إلى أنّ كلّ اللغات فيها هذه المعاناة التي لا يمكن تجنّبها ، وأنّ التعليم الجادّ للعربيّة هو السبيل لتقريب المسافة بين العاميات والفصحى بقراءة التراث العربي وتمثّله ، ومحاولة محاكاة لغته من قِبَل المبدعين [1].

وفيما يخصّ الخطوات العمليّة في هذا الاتّجاه يذكر د/ الطيب البكوش وجود مجموعات علميّة تتّخذ العربيّة موضوعًا لنظرها في كلّ أبعادها ومستوياتها اللسانية أنّها موجودة وإنّ كانت دون المطلوب ، وتعمل على ثلاثة مستويات :

١- محلي ويتمثل في فريق البحث اللساني الذي نشط منذ الستينات في مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس (سيراس) ، وفريق الأطلس اللساني التونسي الذي أنشئ مؤخرًا ، وفرق أخرى تعمل في الكليات المختلفة .

٢- ومستوى عربي من نوع (الرصيد اللغوي العربي) الذي شمل البلدان المغاربية (تونس – الجزائر- المغرب) بين الستينات والسبعينات .

٣- ومستوى أحدث قائم على الشراكة العربية الأوروبية بتمويل مشترك أو أجنبي ، ويتمثل في مشاريع الشبكات : المعجمية ، والمصطلحية ، والترجمة ، وإحدى الشبكات الفرنكفونية ، وتعمل جميعها على جميع مستويات العربية وعلى التعدّد اللساني [2].

في حين ينفي د/ مصطفى غلفان وجود دراسات لسانية عربية بالمستوى المأمول ، وأنّ البحث اللساني العربي يواجه صعوبة ؛ فالعربية التي تمتاز عن غيرها بالثبات والوحدة تغيب فيها الحدود التي تستطيع عند سماعك تركيبًا معيّنًا أنّ تنسبه إلى اللغة القديمة أو الحديثة ، أو أنّه مهمل أو مقبول أو مستحيل ، وهذا غير موجود في العربية بشكل واضح [3].

١- فصول في فقه اللغة ٤١٥.

٢- ينظر : أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ٧٧.
٣- السابق ٢٥٩.

ويقترح د/ عبدالرحمن الحاج صالح تقريب الفصحى من لغة التخاطب ، ولا يُكْتَفى بتفصيح الملحون ؛ كما أنه يجب على مؤسسات التعليم ألا تقصر تعليمها على المستوى الفصيح فتعلِّم المستوى المسترسل ، وتعيد إلى الأداء الذي يستلزمه التخاطب صفاته العفوية كما وصفها العلماء الذين شافهوا فصحاء العرب في إشارة إلى صنيع الجاحظ في أداء النص القرآني بتقليد الأعراب (قراءة الحدر) ، ومحاربته التشدّق حين أصبح المعلمون يبالغون في مدّ الحركات الإعرابية عند تلقينهم تلاميذهم .

ويقترح على الهيئة العليا المشرفة على مشروع الذخيرة العربية مشروعًا فرعيًّا لتهيئة الظروف لإدماج المستوى المسترسل في تعليم العربية ، وجعله في مدارس تكوين المعلمين والإعلاميين [١] .

وهذا ما ألحّ عليه د/ أحمد كشك من الحاجة إلى فصحى سهلة تستخدم بصورة عفوية معتمدة على الحركية والانفعال فيتحقّق لها النفاذ والانتشار في الإذاعة والتلفاز والصحافة ، والمحافل السياسية ، أما في التعليم الأولي فيعنى بإعطاء الطالب قدرًا كافيًا من الفصحى من خلال المحفوظ يرسخ قدرة اللسان ، وكذا تكثيف حصص المطالعة والإنشاء ، وفي مراحل التعليم اللاحقة لابدّ من توافر الأستاذ الناقد المبدع الذي يعشق اللغة ويحسن التعبير بها ، وكذا المكتبة المدرسية والنشاط بمختلف أنواعه ، ودراسة اللغة من خلال تحليل النصوص (دراسة أسلوبيّة) لا دراسة القواعد والقوانين [٢] .

بل إن د/ أحمد كشك يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو دراسة (العامية) وأنّ هذا الدرس مقارنة بالفصحى إدراك لحقِّ التطوّر ، وعلى الرغم من كونه معقَّدًا وشائكًا قد يُوْصِل إلى غايات ، ومنها :

١- السابق ٨٨-٨٩.

٢- اللغة والكلام (أبحاث في التداخل والتقريب)٣٠، ٣٦-٣٧، ٤٠-٤٢.

١- تفسير ما غرب أحيانًا من ظواهر الفصحى .

٢- إدراك كيفية التطوّر الصوتي والتركيبي والدلالي بين القبيلين (الفصحى والعامية)

٣- زيادة رصيد الفصحى بإدراك حدود معجم المبدع والكاتب والمتكلّم الذي قد تفلت منه كلمات يبدو وصلها بالفصحى واضحًا .

٤- تقريب أمر الواديين حتى يسهل إدراك الفصحى .

٥- وضع العامية في موقعها المناسب ، وذلك بالرضا بها لغة للبيوت والفلكلور.

٦- إدراك أنّه بإمكانها أن تكون وسيطًا ناقلاً من لغة إلى لغة [١].

الردُّ على بعض مقولات المحدَثين :

١- إذا كانت مناهج هذه الدراسات التي اهتمّت باللغة في صورتها المكتوبة لا تتّفق ونظرة بعض المحدثين فإنّها قد اتّخذت طرقًا للبحث والتقعيد ، وكانت لها جوانب مضيئة أثمرت نتائج ذات قيمة حتى من وجهة نظر المحدثين ، فأسهمت العناية باللغة المكتوبة في حفظ العربية في صورة مطابقة أو مقاربة لصورتها الأولى كما يشير إلى ذلك برجشتراسر عند حديثه عن اللغة العربية التي قد حفظت الحروف الأصلية للغة السامية الأم حفظًا أتمّ من سائر اللغات السامية الأخرى على الرغم من طول الزمان الماضي عليها قبل بروزها في ميدان التاريخ [٢].

وقد أشرت سابقًا إلى أن النحو التقليدي كان موضع نقد من بعض المحدثين فإن هذا لا يعني غياب الإنصاف أو الموضوعية فهذا تشومسكي يؤكد في ختام دراسته عن اللغة عند الديكارتيين أنّ عدم استمرار التطوّر في النظرية اللغوية قد أضرَّها ، وأنّ فحص النظرية الكلاسيكية فحصًا معتنيًا مع تأكيدها على

١- المرجع نفسه ١١٠-١١١.

٢- التطور النحوي للغة العربية ٢٣.

العمليات العقلية قد يثبت يومًا أنّها عمل ذو قيمة كبيرة [١].

بل إنّ تشومسكي يرسم طريقًا علميًّا واضحًا حين يقول [٢]: ((ليس هناك صواب مطلق في طريقة نحوية معينة ، ولكن هناك طريقة أصحّ أو أفضل من طرق أخرى)) .

٢- أُخذ على المنهج الوصفي نظرته إلى الصواب باعتباره مقياسًا يفرضه المجتمع اللغوي الواحد على الأفراد ، ولا ينظر إليه باعتباره فكرة يستعين بها الباحث على تحديد الصواب والخطأ اللغوِيَّين [٣] ، ولذلك فهو قابل للتغيير فما كان صوابًا في الماضي يصبح خطأ في الحاضر ، ويصبح خطأ اليوم صواب الغد إذا رأى المجتمع اللغوي أن يتبناه في الاستعمال [٤].

وأعلن بوجراند أنّ اللسانيّات الحديثة التي أفرطوا في إطراء دقّتها وموضوعيتها ، ووُصِفَت بها اللغات كما هي لا كما يجب أن تكون ، وبحسب مواصفاتها الخاصة لا بمواصفات اللاتينية ، وعلى الرغم من كلّ ذلك اضمحلّ الأمل الوليد اضمحلالاً سريعًا بالنسبة لتطبيق اللسانيَّات في مجال التدريب والتوجيه اللغوي ؛ ذلك أنّ تحليل حالات النطق إلى بنيات الوحدات الصغرى لا يهيئ وسيلة واضحة للكشف عن كيفية اختيار بدائل اللغة والانتفاع بها في الاتصال ، فاللسانيات تفترض وجود الاتصال على النحو الذي افترضه النحو التقليدي تمامًا [٥].

وبعد سنوات من الدعوة إلى الوصفية القائمة على ظاهر اللغة جاءت نزعة مخالفة لهذا الاتجاه مستندة إلى التراث تارة ، ومؤطرة بالعلمية والحداثة تارة أخرى ، وظهر منهج لغوي أحدث يقوم على أسس عقلية منطقية على يد تشومسكي وأفكاره في التفريق بين الثنائيات (الكفاءة) و (الأداء) ، و(البنية السطحية) و(البنية العميقة) .

ولم تستطع المناهج التاريخية ولا المناهج الوصفية أن تقنع العقل اللغوي بأنّه قد وصل

١- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ١٢٠.
٢- النحو العربي والدرس الحديث للراجحي١٢٨
٣- اللغة بين المعيارية والوصفية ٧٢ .
٤- السابق ٦٨ .
٥- النص والخطاب والإجراء ٥٦٠.

إلى شاطئ يطمئن إليه ؛ حين يبحث عن علاقة اللغة بالكائن الإنساني ، وتنشأ الصعوبة دائما من أن اللغة وعاء للنفس والوجدان مع حملها الطاقة الموضوعية فهي تجمع الجانبين (العقلي ــ الوجداني) وهذا يجعل الاستقرار على تصوّر كامل لها شيئًا يشبه المستحيل . وهذا ما جاء على لسان أنطوان ميبه أحد تلاميذ دي سوسير ، يقول [1]: ((إن اللغة تمثل نظامًا بالغ الحساسية وبالغ التعقيد ، وكلّ ما فيه يتماسك بصورة شديدة ، ولا يسمح بتغييرات جزافية أو نزوية)) .

وما دام الحديث عن التغيير فإننا إذا ما نظرنا في أنظمة اللغة الأربعة : الصوتي ، والصرفي ، والتركيبي ، والمعجمي من حيث الثبات والتغيُّر ، نجد أن اثنين : (الصوتي ، والتركيبي[2]) ثابتان ، أمَّا (الصرفي والمعجمي) فهما محل التغيُّر والتبدُّل .

فالأصوات محكومة بالمخارج والصفات ، وبتأثير بعضها في بعض ، والتبدلات التي تحدث فيها تخضع لقوانين اللغة ، والتركيب من الثوابت التي تتميز بها لغة عن أخرى ، وتظهر من خلاله خصائص كل لغة ، حتى مع وجود تحولات طارئة قد يستخدمها المتكلم ضمن إطار اللغة.

٣- النحو العربي قد وضع على أسس إبستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية ؛ خصوصا في المبادئ العقلية ، وبينهما اختلاف أيضا في النظرة إلى البحث في اللغة وتدوين الكلام من أجل التحليل ، واهتم النحاة العرب أنهم وقفوا من اللغة موقفا غير علمي لا يصحّ ؛ لأن العلم لا يتحدد بالغاية التي يرمي إليها أصحابه نفعية أو غير نفعية ، ويتحدد بأمرين وهما : المشاهدة والاستقراء والاختبار من جهة ، والصياغة العقلية من جهة أخرى ، وزيادة على ذلك فإن للغة كيانا يتمثل في نظام خاص : صوتي ومفردات وتراكيب فإذا تغيرت هذه الأمور صارت لغة

١- اللغة بين العقل والمغامرة ١٢٨.
٢- وأعني به ما يتعلق بالقواعد النحوية ، وهو أصعب أنظمة اللغة وأعصاها على التغيير والتطور ، أما الأساليب ومعاني التراكيب والقوالب فهي مما يتغير بفعل الزمان .

أخرى ، ويلتزم المتحدث بلغة ما بقوانينها الأساسية وبما يستحسنه جمهور الناطقين أنفسهم مما تواضعوا عليه ، وهذا ترتب عليه شيء تجاهله الوصفيون وهو أن اللغة ليست نظاما من الأدلة المسموعة فقط ؛ بل هي زيادة على ذلك قوانين وأصول يعمل بها كل من يتكلمها دون شعور ، وفي إهمالها إهدار لجانب السلوك اللغوي الذي يظهر في تصرف المتكلم في اللغة في دورة التخاطب فأخرجوا بذلك الذات [١].

إضافة إلى أن اللغة ذات مستويات متفاوتة فهناك لغة شعر ولغة نثر ولغة علمية وأخرى أدبية ، وليس من اليسير تجزئة اللغة بحسب مستوياتها ؛ فكان لزامًا على اللغوي أن يستخلص قواعد عامّة تجعل الناس على اختلاف مستوياتهم يتفاهمون ، وإذا كان الوصفيون قد اهتموا بالفروق الخاصة بين مستويات اللغة ، فراعَوا : العقيدة ، والطبقة الاجتماعية ، والطور الحضاري للأمة ، والبيئة الجغرافية وغيرها ، فإن اللغويين القدماء قد ضحّوا بهذه الفروق اللهجية وأهملوا توصيف كثير من اللهجات ، وكأن هذه المعيارية تحقق غرضًا تعليميًّا ، ولهذا ظهرت الفصحى في إطار لغوي موحد غالبا على الرغم من وجود بعض المظاهر اللهجية التي تظهر في صيغ المصادر ، وجموع التكسير ، والإعراب والبناء ، والإعمال والإهمال ...[٢]

ويؤكد د/ عبدالرحمن الحاج صالح على أنه ينبغي النظر إلى مستويات التعبير في العربية موضوعية ؛ بعيدا عن نظر المستشرقين والبنيويين والوظيفيين الذين قالوا بوجود عربية قديمة وتراثية ووسطى ، والفرق أن الفجوة اتسعت بين لغاتهم لتصل إلى حدّ الاختلاف ، وما حدث في العربية مما يسمى (العربية الوسطى) ليس إلا تنوعا يتميز بالاقتصاد في

١- ينظر : المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية الحديثة في العالم العربي (ضمن ندوة : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية) ٣٧٤-٣٧٥.

٢- بحوث في الاستشراق واللغة ٨٠-٨٢ ، وينظر : علم اللغة ١٧١-١٧٣.

الأداء والإدراج ، وليس نظامًا كاملا يعالَج ويُحَلّل [1].

٤- العربية – مع كونها لغة طبيعية – حالةٌ خاصة بين اللغات لها امتداد بعيد ، وتمتلك تراثًا ضخمًا متواصلاً ، وهي بهذا تفارق اللغات الأوربية الحديثة التي كانت لهجات متفرعة من اللاتينية ثم تطوّرت وتغيّرت وتحوّلت إلى لغات ذات استقلال وخصائص وأقصى عمر لهذه اللغات في شكلها الحاضر لا يتعدّى قرنين من الزمان ، ففرضت على الباحثين اللغويين وصفها واستنباط قواعدها وضوابطها وهي سائرة في دروب التطور .

وظهرت اللسانيات في أوروبا ردّا على موقف نقدي من النظرية التاريخية ، وظهرت في أمريكا متصلة اتصالاً وثيقًا بعلم الأجناس ؛ لإيجاد منهج لدراسة لغات القبائل الهندية في أمريكا الشمالية التي لم تعرف الكتابة بعد ، ولا يمكن دراستها باعتماد المقولات النحوية اللغوية الخاصة باللغات الهندية الأوروبية [2].

وهذا ما لم يكن في العربية التي اتّسمت بالثبات والتطوّر المحدود ، ومن هنا كان من العسير أن تُطبَّق على العربية مناهج وضعت للغات أخرى ، وإقحامها في درس العربية ، فضلاً عن أن هذه المناهج لم تكن مستقرة في مصطلحاتها وتفسيراتها المبهمة أحيانا التي ربما تصل حدَّ التناقض ، ويتجلّى ذلك بوضوح في أنّ البحث الألسني بعد سوسير توزَّع إلى مذاهب مختلفة أشبه بفلسفات فكرية لا تلتقي في المنهج ولا في التفكير .

٥- أمّا موضوع الكتابة فإن الكتابات المتداولة قديما وحديثًا هي رموز لا تمثّل النطق تمثيلاً مباشرًا ، وهي مجرّد محاولات تقريبية لتسجيل الواقع الصوتي ، وهذا أمر أُدْرك قديمًا ، جاء في رسائل إخوان الصفا [3]: ((اعلم أنّ الحروف الخطية إنما وضعت سمات

١- أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ٨٧-٨٨.

٢- ينظر : نظرات في التراث اللغوي العربي ٢٣١.

٣- ٣٩١/١ ، وينظر : مدخل إلى علم اللغة ٣١-٣٢.

يستدلّ بها على الحروف اللفظية ، والحروف اللفظية وضعت سمات يُستدل بها على الحروف الفكرية ، والحروف الفكرية هي الأصل))

وليست هناك كتابة تعبّر تعبيرًا موضوعيًّا كاملاً عن الأداء ، وفي كل اللغات توجد مشكلات في الرسم الكتابي إن قليلاً وإن كثيرًا ، ويبلغ الاختلاف بين اللغة المنطوقة ومحاولة تدوينها في بعض اللغات الأوربية مدى بعيدًا كاللغة الفرنسية إلى الحدّ الذي جعل بعض مفكريهم يعدّون مشكلة الرسم الكتابي مصيبة وطنية [١].

وحين ظهر فيما يخصّ بحث الدلالة اتجاه إلى عقد الصلة بين الصوتيات Phonetics والدلالات Semantics كان مما اعتُرِض به على هذا الاتجاه الفرق بين اللغة المكتوبة والمنطوقة ، وهو اعتراض على فكرة إيحاء الفونيمات بأجزاء من الدلالات حين تحذف أو تفقد أجزاء من الكلمات وتبقى الدلالة كاملة ، وهذا حدث في الإنجليزية والفرنسية ، ومثل هذا مطروح في مساقات العربية منذ أوائل عصر التقعيد قَبِله الشعراء والنحاة والنقاد والبلاغيون ، وأشار إليه سيبويه في نحو : لم يكُ ، ولم أدرِ ، وكتب الضرائر الشعرية زاخرة بأمثلة كثيرة من الحذف [٢].

٦- وجود لهجات عامية لا ضير فيه ؛ بل إن بعض الفطناء وجدوا في العامية ألفاظًا ذات نكهة وطاقة تعبيرية كثيفة شحنها بها الاستعمال الحي ، وإذا التُمِست في مقابلها الفصيح لم تُوجد أو لم تكن كافية لإفادة ما يمكن أن يُستفاد بالمفردة أو العبارة المحكية [٣]، ورأينا بعض أئمة العربية لا يلزمون أنفسهم في بعض المواقف حديث الفصحى ؛ ويعود ذلك إلى أسباب منها صعوبة أن يعيش الإنسان غير متأثر بما يلقى على سمعه ، ولو درس العربية وتفقَّه فيها ، ويضاف إلى هذا أن العلماء ربما أدركوا أن في الخروج عن التفاصح في الكلام ابتعاد عن مواقف الهزء والسخرية ، وأنه أدعى

١- اللغة لفندريس ٤٠٥، وينظر : مدخل إلى علم اللغة ٣١-٣٢.

٢- ينظر : اللغة بين العقل والمغامرة ١٢٩- ١٣٤.

٣- ينظر : قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث ١٢٦، اللغة العربية في العصر الحديث ١٤٢.

للقبول ، وأقرب إلى أسماع الناس وقلوبهم ، وكثيرًا ما تروي كتب الأدب والسير نوادر عن النحاة تدلّ بوضوح على أنّ بعض المقامات لا يحسن فيها إلا النطق بألفاظ العامة ومجاراتهم ، ولا يسع المتكلم إلا السير على سننهم ؛ وإلا كان عرضة لمن يعيبه ويشنع عليه ، يقول قدامة بن جعفر[1]: ((وأما السخيف من الكلام فهو كلام الرعاع والعوامّ الذين لم يتأدبوا ولم يستمعوا كلام الأدباء ، ولا خالطوا الفصحاء ، وذلك معيب عند ذوي العقول لا يرضاه لنفسه إلا مائق جهول ، إلا أن الحكماء ربما استعملته في خطاب من لا يعرف غيره طلبًا لإفهامه ، كما أنّه ربما تكلّف الإنسان – لمن لا يحسن العربية – بعض رطانة الأعاجم ليفهمه ، فإذا جرى استعمال اللفظ السخيف هذا المجرى ، وغزي به هذا المغزى كان جائزًا ، وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ، فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستعمليها ، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها ، ولم يكن على حاكيها عيب في سخافة لفظها)) .

ومن الجليّ أنه أصبحت للناس لغة سهلة مألوفة خالية من الحوشي والغريب ، يستعملونها في التخاطب اليومي تعبّر عن أغراضهم وشؤون حياتهم ، سريعة التغيّر قابلة للتحوّل بما يدخلها من مفردات ودلالات جديدة ، يتخلّص مستعملها من كثير مما يلزمه لو أراد الحديث بالفصحى كترك الإعراب ، وعدم مراعاة الجملة العربية في أبنيتها وتراكيبها ، فالأمر لا يحوجه إلى بذل مجهود نحو احتذاء مذاهب العرب الفصحاء في كلامهم ، فليس عليه إلا أن يجاري مجتمعه الذي يعيش فيه ليُفْهِم ويَفهم ، فهذه الألفاظ في مخالطتها للحياة اليومية تحمل من الدقّة والسرعة في الأداء ما لا تؤديه الكلمات المكتوبة ، هذه العربية تُركت دون أن تُضبط

١- نقد النثر ١٣٨.

قواعدها ، أو تراعى في عمليّة التقعيد ، وبقيت العربية الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع والتأليف والخطابة والبيان متّسمة بالثبات والبطء في التغيّر فلا يسري إليها أيّ تعديل إلا بما يقرّه علماؤها مما يستند إلى بعض القواعد والأقيسة ، يقول قدامة بن جعفر [١]: ((وربما اغتُفر في دهرنا هذا اللحن والخطأ للإنسان في كلامه لكثرة اللحن في الناس وأنه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العربِ الأعاجمَ والأقباط وسائر الأجناس ، فأما في الكتاب فغير مغتفر له ذلك ؛ لأن الطرْفَ يتكرر نظره فيه ، والرويّة تجول في إصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذي يجري أكثره على غير روية ولا فكرة)) . ولك أن تقارن هنا بين كلام قدامة وكلام المحدثين في التفريق بين المكتوب والمنطوق حيث أتى على أغلب ما ذكروه من فروق .

إن العامية في عصرنا الحاضر موجودة ولا ريب ، ووجودها واقع لا نستطيع الانفكاك عنه بحال ، ولا ينبغي أن يصوّر الحال بين الفصحى والعامية على أنّه صراع وإثبات وجود ، وما أجمل قول من قال : (أنصار العامية يكتبون بالفصحى ، وخصومها يتحدثون بها) ، ويقول د/ طه حسين [٢]: ((في اللغة إذًا قديم لا بدّ منه إذا أردنا أن تبقى اللغة ، وفيها جديد لابدّ منه إذا أردنا أن تحيا)) .

والعامية لا تتعارض واللغة الأنموذج أو العالية فهما قرينتا رحلة طويلة تزيد على ثلاثة عشر قرنا ، ومع ذلك بقي للفصحى ميدانها الرحيب وميراثها العريض وقواعدها المنضبطة ، يلوذ بها الناطقون عندما تعوزهم الإبانة وتقصر بهم لهجاتهم المحلية ، ولا التفات إلى ما يقوله بعضهم من أن هذا ازدواج يحسن تنقية اللغة منه ، فالعربية ليست بدعًا من اللغات ، فاللغات الأوربية والأمريكية فيها مستويان ، فمثلاً الإيطالية الحديثة كانت لهجة عامية في القرون الوسطى وكان الخاصة

١- السابق ١٤٣.

٢- حديث الأربعاء٣/٣٥.

يدْعونها لغة (الهمج) ولكن لما نظم بها دانتي وبتراك وكامونس وفرانسيس دسيزي قصائدَهم وموشحاتهم أصبحت لغة إيطاليا الفصحى ، والأمر في العربية – دون سائر اللغات – مختلف ، فهي لغة الكتاب المقدّس كُتب لها الانتشار والحفظ والخلود بالإسلام .

إن اللغة لا تفرض على الناس في تحكُّم ولا يُرادُون عليها بإلزام ، ولكنها تنبع من حاجات الناس ، وما يمكن عمله الآن أن نقارب المسافة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة بقدر ما نستطيع من خلال التربية المترلية ، وقاعات الدرس باختلاف مراحله ، ووسائل الإعلام ، وتقع على المجامع اللغوية مهمَّة تأُلّف ما يسوغ توجيهه من الكلمات العامية ، ففي العامية عدد كبير من الكلمات بُخِسَت حقَّها ، وتُنكِّب عن استعمالها لمجرد عاميتها ولها بالفصيح صلة ، ومن مهام المجمع التعريب واختيار الكلمات المولَّدة ، وهذه اللغة المرادة لابُدَّ أن يتوافر لها عنصر الاستقرار في هيكل اللغة ، يقول د/طه حسين [1]: ((فليس من الجديد في شيء أن تفسد اشتقاق اللغة وتصريفها وأن تعدّي الأفعال بالحروف التي لا تلائمها ، وأن تقلب نظام المجاز وضروب التشبيه ، كلّ ذلك ليس تجديدًا وليس إصلاحًا للغة ولا ترقية لها ، وإنما هو مسخ وتشويه)) .

وعلينا أن نهيّئ من الأسباب ولو شيئًا مما كان يصنعه أسلافنا حفاظًا على لغتنا التي هي جزء من هويتنا ، وهي المرآة العاكسة التي تقاس بها قوّة الأمة أو ضعفها ، وإذا عجزنا عن تقويم الوسيلة فماذا نحن فاعلون بالمقاصد والغايات ؛ على أنّ ارتقاءنا بلغتنا أمر يمكن تحقيقه ، ويكفي للتحقّق منه إحصاء عدد الأميين الذين يستطيعون معرفة المعنى العام لبرنامج إذاعي ، أو لمحاضرة تلقى ، أو لخطاب يتلى ، أو لرسالة تقرأ ، وإذا كان هذا حالهم فإنه بالنسبة للناشئة أوفر حظًا في النجاح ، وكذا جمهور المثقّفين الذين يظهرون وعيًا لغويًا

١- المرجع نفسه ٣٥/٣.

جيدًا يترعون به إلى الفصاحة ، ورغبة جامحة في تسويد الفصحى .

وصفوة القول هنا :

١- أن اللغة العربية الفصحى قبل عصر التدوين كانت لغة تخاطب ، ثم دُوّنت ووُصفت وقُعّدت وأصبحت لغة التأليف والكتابة ، وبقيت اللهجات تستعمل استعمالات خاصة ، وبعد خروج العرب من جزيرتهم واختلاطهم بالأجناس الأخرى دخلت في لغاتهم ألفاظ مختلفة .

٢- أن الفرق كبير بين اللغة في شكليها المكتوب والمنطوق ، سواء في الأداء أو التركيب ، ولكلٍّ منهما خصائص ووسائل ، وقابلية مختلفة في التطوّر والتغيير ؛ يظهر سريعًا في المنطوقة في حين تحتفظ المكتوبة بسماتها لفترة أطول .

٣- انبعث علم اللغة الحديث (اللسانيات) في أوروبا على أنقاض دراسات تاريخية ومقارنة ، وفي أمريكا لتسجيل واقع لغات لم تدوّن ، وهنا يظهر الفرق بين هذه الدراسات وما لدى العرب من دراسات مرتبطة بتراث ودين وكتاب مقدّس .

٤- ظلت قراءة بعض الباحثين العرب للدراسات التراثية رهينة لتصوّرات معينة ؛ بحثًا عن الوجود اللساني في الذاكرة العربية ونقاط التقاء الدراسات العربية مع البحث اللساني الحديث ، أو إخضاع ذلك التراث للبحث اللساني .

٥- لكلّ لغة ما يناسبها من مناهج الدراسة ، وبناء على ذلك فقد تتفرع المدرسة الواحدة إلى مدارس ، مرتبطة بعلوم أخرى كعلم النفس أو الاجتماع ، أو العلوم الطبيعية ، وقد تُنْتَقد هذه المدارس من داخلها أو من خارجها .

٦- ينبغي لأيّ مقاربة بين القديم والحديث أن ينظر إلى المادة المدروسة ، ومنهج الدراسة وأسئلة المعرفة التي ينطلق منها الباحثون ، فللدراسات العربية أسس فلسفية وعقلية ومنهجية ، وغايات مختلفة عن الدراسات الأخرى.

٧- العاميـــة في اللغـــة العربيـــة

موجودة كما هو الحال في غيرها من اللغات ، وهي تختلف من قُطْر إلى آخر ؛ بل إن كـــل قطر ينطوي على عاميات ، وهـــذا كلّـــه لا إشكال فيه فللعاميـــة اســـتعمالاتها الـــتي لا تشاركها فيها الفصحى ، وللفصحى كذلك ، ومحاولة استبدال العامية بالفصحى دعـــــــوة فجَّـــــة ليس لها ما يسوِّغها أو يجعلـــها ذات قبول .

المصادروالمراجع :

١- أبعاد العربية ، د/فالح العجمي (دراسة في فقه العربية وتاريخ تطورها وعلاقتها بباقي اللغات السامية) ، مطابع الناشر العربي ، الرياض ، ط١٤١٥،١هـ- ١٩٩٤م.

٢- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د/ محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧، ١٩٨٤م.

٣- الازدواج اللغوي ، س.أ.فيرجسون ، ترجمة / عبدالرحمن القعود ، مطابع التقنية ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

٤- أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ، د/حافظ إسماعيل علوي ود/ وليد أحمد العناتي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٥- الأساس في فقه اللغة لفيشر ، نقله إلى العربية وعلق عليه د/سعيد بحيري ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٦- أسس علم اللغة لماريوباي ، ترجمة د/أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٣م.

٧- الأصوات العربية ، د/كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، دت .

٨- الأصوات اللغوية ، د/إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٦، ١٩٨١.

٩- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د/نايف خرما ، سلسلة عالم العرفة ، الكويت ، ١٩٨٧م.

١٠- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، صحّحه وضبطه / أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، القاهرة ، د ت .

١١- بحوث في الاستشراق واللغة ، د/إسماعيل عمايرة ، دار البشير ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

١٢- البنيوية في اللسانيات ، د/محمد الحناش ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، د ت .

١٣- البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق / عبدالسلام هارون ، دار الفكر ، بيروت ، د ت .

١٤- تطبيقات في المناهج اللغوية ، د/ إسماعيل أحمد عمايرة ، دار وائل للطباعة والنشر ، عمّان ، ط١، ٢٠٠٠م.

١٥- التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر ، خرجه وصححه د/ رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط٢، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٦- تقدم اللسانيات في الأقطار العربية ، ندوة عقدت في الرباط/ المملكة المغربية عام ١٩٨٧، دار الغرب الإسلامي ، ط١، ١٩٩١م .

١٧- تمام حسان رائدًا لغويًّا ، كتاب تذكاري إعداد وإشراف د/ عبدالرحمن العارف ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م .

١٨- توطئة لدراسة علم اللغة ، د/ التهامي الراجي الهاشمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، دار النشر المغربية ، ط٢ ، ١٩٨٤م.

١٩- حديث الأربعاء ، د/طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١١، ١٩٨١م.

٢٠- الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق / محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ .

٢١- دراسات في العربية لفيشر ، ترجمة د/سعيد بحيري ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥م.

٢٢- رسائل إخوان الصفا ، بيروت ، دار صادر ، د ت .

٢٣- السياسات اللغوية للويس جان كالفي ، ترجمة / محمد يحياتن ، الدار العربية

للعلوم (ناشرون) ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٤- سير أعلام النبلاء للذهبي ، حققه/ بشار عوّاد معروف ، مؤسسة الرسالة ، دت .

٢٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٢٦- العربية دراسة في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك ، ترجمة د/ رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٢٧- العربية والدرس الحديث ، د/ نعمة عزاوي ، ضمن وقائع ندوة دائرة علوم اللغة العربية (لغة الضاد) منشورات المجمع العلمي العراقي ١٤١٨-١٩٩٧م.

٢٨- علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة في اللغة العربية (ضمن محاضرات نادي مكة الأدبي الجزء الرابع ١٤١٩-١٩٩٩.

٢٩- علم اللغة ، د/علي عبدالواحد وافي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ط٥ ، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.

٣٠- علم اللغة العام لـ دي سوسير ، ترجمة / يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة / مالك يوسف المطلبي ، نشر دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٥م.

٣١- فصول في فقه اللغة ، د/رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٦، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٣٢- فقه اللغة في الكتب العربية ، د/ عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

٣٣- في علم اللغة العام ، د/عبدالصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٣٤- في فلسفة اللغة ، د/أنيس فريحة ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م.

٣٥- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، د/مازن الوعر ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨م.

٣٦- قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث ، د/نهاد الموسى ، دار الفكر ، عمّان ، ط١، ١٩٨٧م.

٣٧- الكامل في التاريخ لابن الأثير ، راجعه وصحّحه / محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٣٨- الكامل في اللغة والأدب للمبرد ، تحقيق د/ محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

٣٩- الكتابة العربية والسامية ، منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ،ط١، ١٩٨١م .

٤٠- اللسانيات لجون بيرو ، ترجمة / الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس ، دار الآفاق ٢٠٠١م.

٤١- اللسانيات من خلال النصوص ، د/عبدالسلام المسدي ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م.

٤٢- اللسانيات وأسسها المعرفية ، د/عبدالسلام المسدي (المكتبة الفلسفية) ، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر ، ط١ ، ١٩٨٦م.

٤٣- اللسانيات واللغة العربية ، د/ عبدالقادر الفاسي الفهري ، عويدات للنشر والطباعة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م.

٤٤- اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل ، مجموعة مؤلفين ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م.

٤٥- اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها لكيس فرستيغ ، ترجمة /محمد الشرقاوي ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط١ ، ٢٠٠٣م.

٤٦- اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقوى التحول ، د/نهاد الموسى ، دار الشروق ، الأردن ،ط١، ٢٠٠٧م .

٤٧- اللغة العربية معناها ومبناها ، د/ تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤م.

٤٨- اللغة بين العقل والمغامرة ، د/مصطفى مندور ، نشر منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٤م.

٤٩- اللغة بين المعيارية والوصفية ، د/ تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٥٠- اللغة لفندريس ، تعريب / الدواخلي والقصّاص ، ١٩٥٠م.

٥١- اللغة والكلام (أبحاث في التداخل والتقريب) د/أحمد كشك ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٥م.

٥٢- اللهجات وأسلوب دراستها ، د/أنيس فريحة ، دار الجيل ، بيروت ، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٥٣- مبادئ في قضايا اللسانيات لكاترين فوك وبيارلي قوفيك ، تعريب د/ المنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٤م.

٥٤- مبادئ اللسانيات العامة لأندريه مارتيني ، ترجمة / سعدي زبير ، الجزائر ، ١٩٨٤م.

٥٥- مدخل إلى علم اللغة ، د/ محمود فهمي حجازي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٢م.

٥٦- معجم الأدباء لياقوت الحموي ، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م.

٥٧- مقالات في اللغة والأدب ، د/تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٥م.

٥٨- من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا ، د/محمد الحمزاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٨٦م.

٥٩- مناهج البحث في اللغة ، د/تمام حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٠م.

٦٠- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، ر.هـ. روبتر ، ترجمة د/أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٧) ، الكويت ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٦١- النحو العربي والدرس الحديث ، د/عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٦٢- النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة /تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٣- نظرات في التراث اللغوي العربي ، د/عبدالقادر المهيري ، دار الغرب الإسلامي ، ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م.

٦٤- نظريات في اللغة ، د/أنيس فريحة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م.

٦٥- نقد النثر لقدامة بن جعفر ، حققه د/ طه حسين وعبدالحميد العبادي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٣، ١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م

٦٦- الوافي بالوفيات للصفدي ، تحقيق / أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٦٧- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق / إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د ت .